

الوقف في آية آل عمران

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه
ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين. وبعد:

فهذا ورقات خطتها البنان ؛ قبل سنوات ثمان ؛ حول مسألة الوقف في آية آل عمران من
خلال تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى ، أحببت أن أضعها بين يدي أخوتي طلاب العلم علَّ
الله أن ينفعني وإياهم بها، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. جاسم كاظم عبادي الشمري

شوال ١٤٣٠ هـ

اختلف الأصوليون في محل الوقف في آية آل عمران تبعاً لاختلاف القراء فيها ،

قال الحافظ ابن كثير رحمه تعالى: " وقوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله)

اختلف القراء في الوقف هنا :

فقبل على الجلالة .

ومنهم من يقف على قوله (والراسخون في العلم) وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول .

ومن العلماء من فصل هذا المقام " [١].

فالمذاهب التي ذكرها ابن كثير رحمه الله تعالى - كما ترى - ثلاثة ،

وإليك توضيح كلامه رحمه الله تعالى :

المذهب الأول : قالوا الوقف على لفظ الجلالة ، وما بعدها مستأنف .

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة كثيرة [٢]، ذكر منها الحافظ :

١. قول ابن عباس رضي الله عنهما : [التفسير على أربعة أنحاء : فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله] [٣].

٢. حديث أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله يقول : لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا ، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذوه المؤمن يبتغي تأويله (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به) الآية ، وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يبالون عليه [٤].

٣. حديث ابن العاص عن رسول الله قال : إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا فما عرفت منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به [٥].

٤. قراءة ابن عباس رضي الله عنهما : وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون آمنا به [٦].

٥. قول عمر بن عبد العزيز [٧] ومالك بن انس [٨] رحمهما الله تعالى :

(إنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله) [٩].

٦ قراءة ابن مسعود: (إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به) ، وكذا عن أبي بن كعب [10].

المذهب الثاني : عدم الوقف على لفظ الجلالة ، بل عطف الراسخين في العلم على لفظ الجلالة .

وذكر ابن كثير انه قول كثير من المفسرين وأهل الأصول [١١].

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة ، ذكر الحافظ منها :

١. أن الخطاب بما لا يُفهم بعيد [١٢].

٢. قول ابن عباس ما : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله [١٣].

٣. قول مجاهد رحمه الله تعالى : (والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به ، وكذا قال الربيع بن أنس [١٤]) [١٥].

٤. قول محمد بن جعفر بن الزبير [١٦] رحمه الله تعالى : وما يعلم تأويله الذي أراد ما أراد إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد فانسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضا فنفذت الحجة وظهر به العذر وزاح به الباطل ودفع به الكفر [١٧].

٥. أن رسول الله دعا لابن عباس ما فقال: (اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل) [١٨].

المذهب الثالث : التفصيل ، وهو جواز الوقف على كلٍ منهما باعتبار [١٩].

ذلك لأن التأويل يطلق ويراد به أحد معنيين [٢٠]:

الأول منهما : الحقيقة والعاقبة ، وحقائق الأمور وعواقبها لا يعلمها إلا الله وعليه فيجب الوقف على لفظ الجلالة بهذا الاعتبار .

وثانيهما : التفسير والبيان ، وهذا ما يفهمه العلماء الراسخين ، وبهذا الاعتبار يكون الوقف على الراسخين في العلم أوجب، ولندع المجال للحافظ ابن كثير كي يبين لنا ذلك :

قال رحمه الله تعالى : [ومن العلماء من فَصَّل في هذا المقام وقال التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه ، ومنه قوله تعالى (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل) [٢١]

وقوله (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله) [٢٢]

أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد.

فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة ، لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله عز وجل ، ويكون قوله (والراسخون في العلم) ، مبتدأ (ويقولون آمنا به) خبره .

وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء ، كقوله (نبئنا بتأويله) [٢٣] أي بتفسيره .

فإن أريد به هذا المعنى فالوقف على (والراسخون في العلم) لأنهم يعلمون ويفهمون ما خطبوا به بهذا الاعتبار وإن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه ، وعلى هذا فيكون قوله : (يقولون آمنا به) حال منهم ، وساغ هذا وأن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه كقوله : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) إلى قوله (ويقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا) [٢٤] الآية ، وقوله تعالى (وجاء ربك والملك صفا صفا) [٢٥] أي وجاء الملائكة صفوفا صفوفا [٢٦].

وهذا القول هو أولى الأقوال وعليه تجتمع الأدلة ؛ لأنه كما لا يمكن لأحد أن يدعي علمه بحقائق الأمور وما تصير إليه في الآخرة ، كذلك لا يمكن لغيره أن يكابر ويدعي أن في كتاب الله | شيئا لا يعلم أحد بمعناه إلا الله تبارك وتعالى .

قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: [فإننا لم نرَ المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا : هذا متشابه لا يعلمه إلا الله ، بل أمرؤوه كله على التفسير حتى فسرت " الحروف المُقَطَّعة " في أوائل السور [٢٧].

وقال الغزالي [٢٨] رحمه الله تعالى :

[فإن قيل قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) ، الواو للعطف أم الأولى الوقف على (الله) قلنا كل واحد محتمل .

فإن كان المراد به وقت القيامة فالوقف أولى ، وإلا فالعطف ، إذ الظاهر أن الله تعالى لا يخاطب العرب بما لا سبيل إلى معرفته لأحد من الخلق [٢٩].

وليس مراده بذكر وقت القيامة هذا الأمر خاصة ، وإنما ذكر هذا على سبيل التمثيل ، وإلا فهو فرد من أفراد الأمور التي لا يعلم حقائقها إلا الله | ، ومن المعلوم أن ذكر بعض أفراد العام لا يقتضي التخصيص [٣٠].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : [وبالجمله : فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول : إن في القرآن آيات لا يعلم معناها الرسول ولا غيره] [٣١].

يدل على هذا آثار كثيرة وردت عن الصحابة والتابعين نذكر بعضها :

١. قول ابن مسعود :

(والذي لا إله غيره ، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله ، إلا أنا أعلم فيمن أنزلت ، ولو أعلم أحد أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه) [٣٢].

٢. قول مجاهد رحمه الله تعالى : قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها [٣٣]

٣. قول ابن أبي مليكة [٣٤] رحمه الله تعالى : قال : رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ، ومعه ألواح ، فيقول له ابن عباس : " اكتب " قال : حتى سأله عن التفسير كله [٣٥].

ولو لم يكن للراسخين في العلم حظ في المتشابه إلا أن يقولوا :

(آمنا به كل من عند ربنا) ، لم يكن للراسخين فضل على المتعلمين ،

بل على جهلة المسلمين ، لأنهم جميعاً يقولون : (آمنا به كل من عند ربنا) [٣٦].

والحمد لله رب العالمين

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الهوامش

[١] المصدر السابق ٨ / ٢ - ٩ .

[٢] قال ابن تيمية رحمه الله : "والوقف هنا على ما دل عليه أدلة كثيرة وعليه أصحاب رسول الله وجمهور التابعين وجماهير الأمة " مجموع الفتاوى ١٣ / ٢٧٥ .

[٣] ينظر تفسير ابن كثير ٨ / ٢ ، الدر المنثور ٢ / ١٥٢ .

[٤] رواه الطبراني في المعجم الكبير ، وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه ولم يسمع منه ، ينظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لعلي بن أبي بكر الهيثمي ت (٨٠٧) ، دار الريان - دار الكتاب العربي ، بيروت باب " في معرفة حق العالم " ج ١ / ١٢٨ . قال ابن كثير في تفسيره (غريب جداً) ٩ / ٢ .

[٥] مسند الحارث (زوائد الهيثمي) ، الحارث بن أبي أسامة / الحافظ نور الدين الهيثمي ، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية ط الأولى تحقيق د. حسين أحمد صالح الباكري ، باب النهي عن الجدال في القرآن ج ٢ / ٧٣٩ - ٧٤٠ ، تفسير ابن كثير وقال فيه " رواه ابن مردويه " : ٩ / ٢ .

[٦] ينظر تفسير الطبري ٣ / ١٨٢ - ١٨٤ ، وزاد المسير ١ / ٣٤٥ ، تفسير ابن كثير ٩ / ٢ ، وقال ابن حجر رواه عبد الرزاق بسند صحيح ينظر فتح الباري شرح صحيح البخاري أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ دار المعرفة ١٣٧٩ ، ج ٨ / ٢١٠ .

[٧] هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي أبو حفص المدني ، ثم الدمشقي (أمير المؤمنين) ولد سنة ٦١ وقيل ٦٣ هـ ، وتوفي سنة ١٠١ هـ ، عُدَّ من الخلفاء الراشدين . ينظر تهذيب التهذيب ٧ / ٤٧٨ .

[٨] هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي الحميري ، أبو عبد الله المدني الفقيه (إمام دار الهجرة) رأس المتقين وكبير المنتبئين ، قال الشافعي " مالك حجة الله على خلقه بعد التابعين " ، ينظر تهذيب التهذيب ١٠ / ٨ .

[٩] ينظر تفسير الطبري ٣ / ١٨٣ ، تفسير ابن كثير : ٩ / ٢ .

[١٠] ينظر تفسير الطبري ٣ / ١٨٤ ، زاد المسير ١ / ٣٥٤ ، تفسير ابن كثير ٩ / ٢ .

[١١] كما تقدم ، قال الشوكاني : (ورجح ابن فورك أن الراسخين يعلمون تأويله وأطنب في ذلك وهكذا جماعة من محققي المفسرين رجحوا ذلك ، قال القرطبي قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر وهو الصحيح) فتح القدير ١ / ٣١٧ ، وانظر تفسير القرطبي ٤ / ١٧ - ١٨ .

[١٢] ينظر تفسير ابن كثير ٩ / ٢ .

[١٣] ينظر تفسير الطبري ٣ / ١٨٣ ، تفسير ابن كثير ٩ / ٢ .

[١٤] هو لربيع بن أنس البكري ، ويقال الحنفي ، البصري ثم الخراساني ، توفي سنة ١٤٠ هـ أو قبلها ، صدوق له أوهام ورمي بالتشيع ، ينظر تهذيب التهذيب ٣ / ٢٣٩ .

[١٥] ينظر تفسير ابن كثير ٩ / ٢ .

[١٦] هو محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام الأسدي المدني توفي سنة بضعة عشرة ومائة ، ينظر التقريب ٤٧١

[١٧] ينظر تفسير ابن كثير ٩ / ٢ ، وتفسير الطبري ٣ / ١٨٣ وفيه "ودمع به الكفر" بدلاً من "ودفع به الكفر" وتفسير القرطبي ٤ / ١٧ ، ويلاحظ هنا أن الحافظ ذكر هذا الأثر ضمن حجج أصحاب هذا القول ، والذي يظهر أنه لا دلالة فيه على هذا المذهب ، لأن مقتضى هذا القول ، أنهم لا يعلمون مراد الله الذي أراده ، بل يقولون آمنا به ويرجعون مالم يتبين لهم إلى ما أحكم ، وهذا مالا يتمشى مع قول هؤلاء لأنهم قالوا نحن نعلم تأويله ، ألم ترَ إلى قول ابن عباس " أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله " ، وإنما يمكن أن يجعل مع حجج المذهب الأول ، والله أعلم .

[١٨] رواه بهذا اللفظ الإمام أحمد رقم (٢٣٩٧) ج ١ / ٢٦٦ ، ورقم (٢٨٨١) ج ١ / ٣١٤ ، ورقم (٣٠٣٣) ج ١ / ٣٢٨ ، و رواه دون قوله : (وعلمه التأويل) البخاري رقم (١٤٣) ج ١ / ٦٦ ، ومسلم رقم (٢٤٧٧) ج ٤ / ١٩٢٧ .

[١٩] ينظر المستصفي في علم الأصول لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ت ٥٠٥ ، دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤١٣ ط الأولى ، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي ، ج ١ / ٨٥ ، الموافقات في أصول الشريعة لإبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي ت ٧٩٠ ، دار المعرفة بيروت ، تحقيق عبد الله دراز ج ٣ / ٣٤٤ ، فتح القدير للشوكاني ١ / ٣١٦ - ٣١٧ .

[٢٠] أي في القرآن خاصة ، وإلا فهو له أكثر من معنى في الاصطلاح تنظر في شرح الكوكب المنير ص ٢٣٣ .

[٢١] سورة يوسف : (١٠٠) .

[٢٢] سورة الأعراف : (٥٣) .

[٢٣] سورة يوسف : ٣٦ ، ويكثر الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله ، من استعمال التأويل بمعناه هذا في تفسير فيقول مثلاً " القول في تأويل قوله تعالى " أي تفسيرها ، ينظر أمثلة في تفسيره ١ / ٥٠ - ٥١ ، ٢ / ٧٩ .

[٢٤] سورة الحشر : (٨ - ١٠) .

[٢٥] سورة الفجر : (٢٢) .

[٢٦] تفسير ابن كثير ٢ / ٩ - ١٠ ، وانظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ت ١٣٩٣ ، عالم الكتب ، ج ١ / ٢٦٧ .

[٢٧] ينظر تأويل مشكل القرآن ص ١٠٠ ، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم المروزي ت ٢٧٦ ، صاحب التصانيف المشهورة ، والكتب المعروفة ، وكان ثقة ديناً فاضلاً ، ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، فإنه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة . ينظر ترجمته في :

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٠ / ١٧٠ ، البداية والنهاية لابن كثير ١١ / ٤٨ ، ٥٧ ، مجموع الفتاوى ١٧ / ٣٩١ - ٣٩٢ .

[٢٨] هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي حجة الإسلام أعجوبة الزمان زين الدين أبو حامد ، صاحب التصانيف والذكاء المفرط ولد سنة ٤٥٠ ، وتوفي سنة ٥٠٥ ، ينظر سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣٢٢ ، شذرات الذهب ٢ / ١٠ ، طبقات الشافعية ٢ / ٢٩٣ .

[٢٩] المستصفي: ١ / ٨٩ .

[٣٠] ينظر التقرير والتحبير ١ / ٣٥٤ ، والمدخل لابن بدران ٢٤٥ ، وانظر ما يأتي من كلام الحافظ رحمه الله حول هذه القاعدة ص .

[٣١] ينظر مجموع الفتاوى ١٧ / ٣٩٠ ، ٤٤٨ .

[٣٢] رواه البخاري رقم (٤٧١٦) ج ٤ / ١٩١٢ ، ومسلم رقم (٢٤٦٣) ج ٤ / ١٩١٣ .

[٣٣] رواه ابن أبي شيبة رقم (٣٠٢٨٧) ج ٦ / ١٥٤ ، وانظر تفسير الطبري ٢ / ٣٩٥ ، ابن كثير : ١ / ٩ .

[٣٤] هو عبد الله بن عبيد بن أبي مُليكة ابن جدعان أدرك ثلاثين من الصحابة ، مات سنة ١١٧ ، ينظر تهذيب التهذيب ٥ / ٣٠٧ .

[٣٥] المصدر السابق .

[٣٦] ينظر تأويل مشكل القرآن : ١٠٠ .